

السؤال

لماذا يحتاج الناس إلى الدين ؟ ألا تكفي القوانين لضبط حياة الناس !.

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

حاجة البشر إلى الدين أعظم من حاجاتهم إلى ما سواه من ضرورات الحياة ؛ لأن الإنسان لا بد له من معرفة مواقع رضى الله - سبحانه - ومواقع سخطه ، ولابد له من حركة يجلب بها منفعة ، وحركة يدفع بها مضرته ، والشرع هو الذي يميز بين الأفعال التي تنفع والتي تضر ، وهو عدل الله في خلقه ، ونوره بين عباده ، فلا يمكن للناس أن يعيشوا بلا شرع يميزون به بين ما يفعلونه وما يتركونه .

وإذا كان للإنسان إرادة فلا بد من معرفة ما يريده ، وهل هو نافع أو ضار ؟ وهل يصلحه أو يفسده ؟ .

وهذا قد يعرفه بعض الناس بفطرتهم وبعضه يعرفونه بالاستدلال إليه بعقولهم ، وبعضه لا يعرفونه إلا بتعريف الرسل وبياناتهم لهم وهدايتهم إياهم - أنظر التدمرية ، تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية و ص: 213, 214 ، ومفتاح دار السعادة ، ج2 ، ص: 383 - .

فمهما استعلت المذاهب المادية الإلحادية وتزخرفت ومهما تعددت الأفكار والنظريات فلن تغني الأفراد والمجتمعات عن الدين الصحيح ، ولن تستطيع أن تلبي متطلبات الروح والجسد ، بل كلما توغل الفرد فيها ؛ أيقن تمام اليقين أنها لا تمنحه أمناً ، ولا تروي له ظمأً ، وألا مهرب منها إلا إلى الدين الصحيح ، يقول أرنست رينان : (إن من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبه وأن تبطل حياة استعمال العقل والعلم والصناعة ، ولكن مستحيل أن ينمحي التدين ، بل سيبقى حجة باطلة على بطلان المذهب المادي الذي يريد أن يحصر الإنسان في المضايق الدنيئة للحياة الأرضية) انظر : الدين ، تأليف عبد الله دراز ، ص : 87.

ويقول محمد فريد وجدي : (يستحيل أن تتلاشى فكرة التدين ؛ لأنها أرقى ميول النفس وأكرم عواطفها ، ناهيك بميل يرفع رأس الإنسان ، بل إن هذا الميل سيزداد ، ففطرة التدين ستلاحق الإنسان ما دام ذا عقل يعقل به الجمال والقبح ، وستزداد فيه هذه الفطرة على نسبة علو مداركه ونمو معارفه) المصدر السابق ، ص: 87.

فإذا ابتعد الإنسان عن ربه فعلى قدر علو مداركه واتساع آفاق علمه ، يدرك عظم جهله بربه وما يجب له ، وجهله بنفسه وما يصلحها ويفسدها ، ويسعدها ويشقيها ، وجهله في جزئيات العلوم ومفرداتها كعلوم الأفلاك والمجرات وعلوم الحاسب والنواة

وغيرها ... وحينئذ يتراجع العالم من مرحلة الغرور والكبرياء إلى التواضع والاستسلام , ويعتقد أن وراء العلوم عالماً حكيماً , ووراء الطبيعة خالقاً قادراً , وتلزم هذه الحقيقة الباحث المنصف بالإيمان بالغيب والإذعان للدين القويم , والاستجابة لنداء الفطرة والغريزة الجبليّة.... وإذا تخطى الإنسان عن ذلك انتكست فطرته وتردى على مستوى الحيوان الأعجم .

ونخلص بهذا إلى التدين الحق – الذي يعتمد على أفراد الله بالتوحيد , والتعبد له وفق ما شرع – عنصر ضروري للحياة ليحقق المرء من خلال عبوديته لله رب العالمين , ولتحصيل سعادته وسلامته من العطب والنصب والشقاء في الدارين , وهو ضروري لتكتمل القوة النظرية في الإنسان ؛ فبه وحده يجد العقل ما يشبع نهمته , ومن دونه لا يحقق مطامحه العليا .

وهو عنصر ضروري لتزكية الروح وتهذيب قوة الوجدان , إذ العواطف النبيلة تجد في الدين مجالاً ثرياً ومنهلاً لا ينفد معينه تدرك فيه غايتها .

وهو عنصر ضروري لتكتمل قوة الإرادة بما يمدّها بأعظم البواعث والدوافع ويدرّعها بأكبر وسائل المقاومة لعوامل اليأس والقنوط .

وعلى هذا فإذا كان هناك من يقول : إن الإنسان مدني بطبعه , فينبغي أن نقول : (إن الإنسان متدين بفطرته) انظر السابق ص : 84 , 98, لأن للإنسان قوتين : قوة علمية نظرية , وقوة علمية إرادية , وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوته العلمية والإرادية , ولا يتحقق استكمال القوة العلمية إلا بمعرفة ما يلي :

1- معرفة الإله الخالق الرازق الذي أوجد الإنسان من عدم وأسبغ عليه النعم .

2- معرفة أسماء الله وصفاته , وما يجب له – سبحانه – , وأثر هذه الأسماء على عباده .

3- معرفة الطريق التي توصل إليه سبحانه .

4- معرفة المعوقات والآفات التي تحول بين الإنسان وبين معرفة هذا الطريق وما توصل إليه من النعيم العظيم .

5- معرفة نفسك معرفة حقيقية , ومعرفة ما تحتاج إليه , وما يصلحها أو يفسدها , ومعرفة ما تشتمل عليه من المزايا والعيوب .

فبهذه المعارف الخمس يستكمل الإنسان قوته العلمية , واستكمال القوة العلمية والإرادية لا يحصل إلا بمراعاة حقوقه سبحانه على العبد , والقيام بها إخلاصاً وصدقاً ونصحاً ومتابعةً , وشهوداً لمنته عليه ولا سبيل إلى استكمال هاتين القوتين إلا بمعاونته فهو مضطر إلى أن يهديه الصراط المستقيم الذي هدى أولياءه إليه . انظر: الفوائد , ص : 18-19 .

بعد أن عرفنا أن الدين الصحيح هو المدد الإلهي لقوى النفس المختلفة , فإن الدين – أيضاً – هو الدرع الواقى للمجتمع , ذلك

لأن الحياة البشرية لا تقوم إلا بالتعاون بين أعضائها , ولا يتم هذا التعاون إلا بنظام ينظم علاقاتهم , ويحدد واجباتهم , ويكفل حقوقهم , وهذا النظام لا غنى له عن سلطان نازع وازع يردع النفس عن انتهاكه , ويرغبها في المحافظة عليه , ويكفل مهابته في النفوس ويمنع انتهاك حرماته , فما هو هذا السلطان ؟ فأقول : ليس على وجه الأرض قوة تكافئ قوة التدين أو تدانيها في كفالة احترام النظام , وضمان تماسك المجتمع واستقرار نظامه , والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه .

والسر في ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الكائنات الحية بأن حركاته وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها شيء لا يقع عليه سمع ولا بصر , وإنما هو عقيدة إيمانية تهذب الروح وتزكي الجوارح , فالإنسان مقود أبداً بعقيدة صحيحة أو فاسدة , فإذا صلحت عقيدته صلح فيه كل شيء , وإذا فسدت فسد كل شيء .

والعقيدة والإيمان هما الرقيب الذاتي على الإنسان وهما – كما يلاحظ في عموم البشرية – على ضربين :

– إيمان بقيمة الفضيلة وكرامة الإنسانية وما إلى ذلك من المعاني المجردة التي تستحي النفوس العالية من مخالفة دواعيها حتى ولو أعفيت من التبعات الخارجية والجزائية المادية .

– وإيمان بالله سبحانه وتعالى وأنه رقيب على السرائر , يعلم السر وأخفى , تستمد الشريعة سلطانها من أمره ونهيه , وتلتهب المشاعر بالحياء منه إما محبة له أو خشية منه أو بهما معاً ... ولا ريب أن هذا الضرب من الإيمان هو أقوى الضربين سلطاناً على النفس الإنسانية , وهو أشدهما مقاومة لأعاصير الهوى وتقلبات العواطف , وأسرعها نفاذاً في قلوب العامة والخاصة .

من أجل ذلك كان الدين خير ضمان لقيام التعامل بين الناس على قواعد العادلة والإنصاف , وكان لذلك ضرورة اجتماعية , فلا غرو إن حل الدين من الأمة محل القلب من الجسد . _ انظر : الدين , ص : 98 , 102 _ . وإذا كان الدين عموماً بهذه المنزلة , فالمشاهد اليوم تعدد الأديان والملل في هذا العالم , وتجد كل قوم بما لديهم من الدين فرحون مستمسكون به , فما الدين الصحيح الذي يحقق للنفس البشرية ما تصبو إليه ؟ وما ضوابط الدين الحق ؟ .